على المشنقة . . .

قصة

محمود تيمور

« تحية لصديقي اليوزباشي عبد المنعم
أبي السعود ضابط سجن سوهاج »

كان جالساً القرفصاء في حجرته الفردية من السجن، مسنداً ذقنه بيديه، رانياً إلى الحائط المعتم أمامه. ولم يكن له غير الحائط مجالاً للنظر، فحجرته ليست كلها إلا حوائط متشابهة ...

وذلك الظلام المخيم على كل شيء كان يراه قائماً حوله، ويحسه يغمر دخيلة نفسه. إنه الظلام الدائم العابس، ذلك الزميل الوحيد الذي يلازمه ولا يريد له فراقاً.

لقد أمضى في هذه الحجرة أياماً لا يحصي لها عدداً، ولم يكن يستطيع أن يميز بين ليلها ونهارها، فقد كانت الحجرة متغلغلة في مبنى السجن، كأنها هاربة تريد أن تلوذ بمكان سحيق تختفي فيه عن الأنظار!

ولا يذكر أنه رأى ما يسمونه ضوء الشمس، وإن كان يذكر أن بصيصاً يدلف إليه حيناً بعد حين، فلا يعرف: أبقية هي من أشعة الشمس استطاعت أن تفلت من بين الجدران والسدود، أم فضلة هي من فضلات أضواء المصابيح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب؟

وذلك الصمت الثقيل . . كان يتمثل في مخيلته كأنه كتل ضخمة من الحجارة تتراكم على كاهل ذلك المأوى الضيق الذي يحتويه . . . صمت متواصل يتقطعه رنين أجراس السجن في فترات متباعدة، فيتراءى هذا الرنين إلى أذنه مضطرباً متخاذلاً، مزّق بُعد الشقة أشلاءه، فلا يبلغه إلا أصداء خافتة لا يدرك لها كنهاً، حتى إنه ليتخيلها بعض وساوس نفسه الموحشة.

وقد اتخذت هاته الحجرة في ظلامها وصمتها وحوائطها المتشابهة الدائرة

حوله شكل بئر بعيدة المهوى ، كأنها انطبق فيها فلا منفذ لها ، وهو ملقى في قرارتها كأنه إحدى الهوام التي تأوي إلى جحورها في بطون المغاور والكهوف !

وأحس السجين ضغطاً يتكاثف على صدره ، واختنقت أنفاسه ، فراح يتلمس الهواء جاهداً ...

لقد أبرم القضاء منذ أيام حكمه فيه بالإعدام شنقاً ... وسينفذ الحكم يوماً ما إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريب فيه ... إنه ليذكر تلك اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكمه ، وقد تلقى هذا الحكم واقفاً شامخ الرأس بقامته المديدة ، وجسمه الصلب المكتنز ، ووجهه المستدير الملوم ذي العينين المتألقتين ...

كان في قفص الاتهام والحراس حواليه ، وعيون الناس في قاعة المحكمة تنتهبه بنظرات التفحص والفضول ... وإنه لواثق أنه استقبل ذلك الحكم بجأش رابط وقلب جسور . ولم لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قوياً ، في تلك اللحظة التي سمع فيها الحكم عليه ، بأنه كائن موجود لم يمس بسوء ، ويرى الناس حياله أحياء مثله يستمتع بما يستمتعون به من مجالي الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه رحبة تزخر بالنور والهواء والضجة ... لم يتغير شيء ، ما زال على حاله حياً يتحرك ويتنفس ويستطيع أن يتكلم وأن يبتسم ، بل يستطيع أن يضحك وأن يقهقه إذا أراد ... لقد صدر عليه حكم الإعدام ، ولكن أين منه ساعة التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذب أن حكم الإعدام نافذ فيه ... وتهيأ وقتئذ ليتحرك حتى يثبت لنفسه أنه ممتلئ قوة وفتوة ، وأنه جياش القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبث أن أحس رعشة تمشي في أوصاله فتوهن ساقيه ، وهم بأن يبتسم فأحس بعضلات وجهه تتقلص كمن أجهش بالبكاء ، أما الضحكة التي أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتد إلى حلقه متخاذلة . وأحب أن يتكلم بصوته الجهوري الحاد ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وحوار ، وأن يقول : ليس في طوق أحد أن ينالني بضر . فإذا بشفتيه تجمجمان بنغمة مختنقة قائلاً :

ما قتلت إلا منتقماً لشرفي ! ... ربما طول ... الأمر له ...

وعجب لما أدركه من ضعف ، أليس هو الشيخ عبد المتجلي عزيز قومه

وحميد بلدته في الصعيد ، رجل الدين والدنيا ، من أصاب من علم الشريعة قدراً ومن السلطان والتحكم نصيباً ، من استطاع أن يوفق في نظره بين روح التدين وطابع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفة فريدة له : الرجل الذي أقام نفسه بسطوة شخصيته ونفوذ جاهه حاكماً مهيب الرأي مخشي الجانب ، يفصل في المنازعات وينزل العقوبات بأصحابها دون أن يرد له أمر أو نهي ..

إنه ليعرف الحق والعدل أكثر من أولئك الحكام والقضاة الذين نصبتهم الدولة يقرون الأمن والنظام . إنه يحكم بقلبه وضميره ، أما أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وحده القانون والقاضي والمحامي . وهو في ذلك كله عادل في قسوته ، حكيم في شدته . إذا اعتقد أن المتهم جانٍ فهو جانٍ ما من ذلك بد . إنه لشديد الاعتداد ببصيرته النافذة التي لا تخطىء ، فليس هو بمفتقر إلى شهود نفي أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع ، بل إنه في أغلب الأحيان ليس في حاجة إلى أن يستنطق المتهمين أو يستدرجهم إلى اعتراف . وكان في أسلوب قضائه يقرر ما يراه وينفذه في آن ، لا تعقيب لحكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخطة لما أسر إليه أحد أعوانه « سعداوي » أن « سكينة » حق عليها العقاب : إذ فرطت في شرفها وخاضت في حديثها ألسنة الناس . وكان النبأ شديد الوقع عليه ، فإن « سكينة » شقيقته الباقية من إخوته الراحلين ، وهو لذلك يحمل لها كبيراً من الحب والإعزاز . . . وبعد أن استيقن من « سعداوي » أن الأمر جد لا يحتمل التأويل أحس على الفور حمية الشرف تهب أعاصيرها بين جوانحه ، فأقسم أن يثأر للشرف المثلوم ، وأن يغسل ما لحقه من عار . وما عتم أن أصدر في دخيلة نفسه حكمه القاطع على شقيقته وعلى شريكها في الإثم ، ولم يبح بما تم في محكمة نفسه لأحد .

أما التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل ، ترصد لشريكه المتهم بهتك عرض أخته وراء أكمة في منطقة غير مأهولة ، وما إن رآه في الطريق آيباً إلى البلدة قبيل الغروب حتى رماه بطلق ناري وهو يغمغم : هذا جزاء الفاسق الأثيم !

وفي منتصف الليل دلف إلى مخدع أخته « سكينة » وهي مغرقة في سبات ، فلم يزعجها بإيقاظ ، بل أخذ برأسها تواً وأعمل السكين المسنونة في رقبتها فمارت في أوداجها حتى كاد يهوي بالرأس عن الجسد ، وهو يهمهم : الله أكبر ! .. فلتموتي أيتها الفاسقة

الآثمة ! ... وترك الجثة تختلج اختلاجاتها الأخيرة ، والدم ينضح منها دفاقاً. ومضى يمسح السكين في قبالة، ثم ذهب فاغتسل وأوى إلى فراشه ونام ملء جفنيه .

إنه لا يذكر على وجه الدقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث ؟ تجمهر الأهلين ، هرج ومرج ، شرطة ورجال تحقيق ... ثم ألفى نفسه نزيل السجن ... وترادفت الأيام ، وتوالت المشاهد ، وهو يتنقل بين محبسه ومكتب النيابة : شاهد يقسم ، ومحام يجادل في صيحة واحتداد ، ومحقق يضرب المكتب بكلتا يديه ، وحجاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهنالك يهزون الأرض بأحذيتهم الضخمة ويقعقعون بأسلحتهم الرهيبة ... تشابكت في رأسه المشاهد ، واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغشي ذلك كله ضباب متراكم ، ولكن صورة واحدة بين ألفاف هذه الصور الغامضة ظلت ماثلة في مخيلته واضحة الملامح لا تبرح مكانها من رأسه ، تلك هي صورة « سعداوي » الذي سعى إليه بتهمة أخته ، وهو بين يدي المحقق يعترف أخيراً اعترافه الخطير الذي لم يكن في الحسبان ... إن اعترافه هذا « السعداوي » ما زال يقرع سمعه بكلمات كأنها قذائف حامية صخابة ... لقد أدلى الرجل أمام المحقق بأن اتهامه الفتيلين في شرفهما لم يكن إلا تبليغاً مكذوباً ، ووشاية مقصودة ، وأنه إنما عمد إلى هذه المكيدة منتقماً من الرجل القتيل لضغائن كينة ، ومن « سكينة » لأنها حرمته ما كانت تجزله له من عطاء ... إذن لقد وضح الشيخ عبد المتجلي أن جنايته المزدوجة لم تكن في موضعها ، لقد قتل نفسين بريئتين منساقاً بدافع وهم وخدعة ، قتل أختاً عزيزة كريمة وصديقاً وفياً أميناً بلا جريرة كأنه يلهو ويعبث ..

وغض من بصره ، وجعل يقرض أظفاره بعنف ، حتى أدمى أنامله ، وصعّد زفرات حرّى ... وسرعان ما لاحقه الريب : ليس بمعقول أن يقتل نفسين بغير حق . إن فراسته لم تخطئ مرة وبصيرته لم تكذبه يوماً ... ولكن ماذا يصنع أمام اعتراف ذلك « السعداوي » بأنه واش كذوب ؟! ... وماذا يصنع بما أفهمه به محاميه من أنه قتل بلا موجب ، وأن شهادة الشهود وقرائن الحادث كشفت هذه الحقيقة ساطعة ناصعة ؟

وغامت الدنيا أمام عينيه ، وازداد المكان تجهماً وحلوكة .

ورفع رأسه ، فاصطدم بصره بهذه الجدران الكالحة البغيضة ، جدران

البئر المظلمة التي لا منفذ لها ... وفتح عينيه جهد إمكانه ، وراح يحملق تائه النظر .. وتمثلت له اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكم الإعدام : إنه ليراه الآن أمامه جلي الصورة ، واضح القسمات ، منكبّاً على أوراقه ، فإذا رفع رأسه تراءت عيناه الصغيرتان خلف نظارته وهو يركز بصره دائماً في موضع ثابت لا يعدوه إلى منصة المحامين ولا إلى صفوف الجمهور ولا إلى قفص الاتهام ، كأنه لا يعنيه من هذا كله شيء . . . وكان ذلك القاضي لا يفتأ يتابع حركة يده إلى رأسه يخلع طربوشه ثم يعيده مكانه ، فتظهر صلعته ملتمعة وتختفي سريعاً ... وقد نطق بحكمه في صوت أخنّ ولهجة فاترة ، كأنه يتحدث إلى جار له حديثاً تافهاً لا يثير الانتباه .

وبينا كان الشيخ عبد المتجلي منسرح الفكر في هذه الأخيلة ، إذ انتفض في جلسته انتفاضة مباغتة ... كلا لن يشنق ولن يمسه أحد بضر .. لقد قتل من قتل ثأراً للشرف ... إن أخته ومست اسمه بل اسم الأسرة بالعار ، فحق عليها القتل ... ولكن أيكون قتل من قتل بلا أناة ولا روية ؟ أينسى ساعة دنا منه « السمداوي » والتحقيق آخذ مجراه ، وانكب على يده يغسلها بدموعه ويستغفره ، ويردد بصوت متحشرج : لقد خدعتك يا عبد المتجلي . لقد أثرت حفيظتك على بريئة . أختك طاهرة طهر الملائكة ، وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك ستراً ولا أن يلحق بك عاراً . عفوك عفوك .

وكان يصغي إلى استغفار هذا « السمداوي » ولا يلفظ من قول . إنه يسأل نفسه الآن : لماذا لم يجبه حتى بكلمة واحدة يصب فيها عليه اللعنة ؟ لماذا لم ينقض على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لماذا كان خاملاً كالمعتوه لم يحرك ساكناً ؟ إنه يذكر أن كل ما فعله ساعتئذ أنه ازورّ ببصره عن « السمداوي » وهمهم : إن الله لا يظلم من عباده أحداً ! . . .

ثم طفرت من عينيه دمعة فلم يمسحها ، بل تركها تتهاوى على خده .

إنه ليذكر كيف خلا به محاميه بعد ذلك وجعل يتحدث إليه حديثاً ممطاً مستفيض الحواشي ، لم ترسخ منه في ذهنه إلا هذه الجملة التي ختم بها قوله : « ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمر يا شيخ

صعد المنصة . الحاكم هو الله ! » . . . وانصرف عنه الحاوي ، وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها المرهوب ، وظلت هذه الجثة تزن أصداؤها المفزعة في حنايا نفسه . . . لقد أحس بها تأخذ عليه سبيل تفكيره ، بل تلهب رأسه وتسري في أوصاله تخزه وخز الإبر .

وأنى لسانه يردد وهو مطأطىء الرأس : ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ! واعترته بغتة نوبة بكاء حادة ، وتمادى في نشيجه وهو يشعر أن ليس لهذا البكاء من آخر . ثم أدرك أنه لا يجمل به أن يبكي ، فد يمر على مقربة منه أحد الحراس فيسمعه ، فليكفكف دمعه ، وليكبح ثائرة نفسه . . .

ورفع بصره وتمتم : إنما الحاكم هو الله ! أيكون في سوابق أحكامه على الناس قد وقع في مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه ؟ وإذا فرض أنه كان عادلاً في أقضيته لم يحد عن جادة الحق مرة ، فمن الذي نصبه قاضياً يتحكم في شؤون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم من أهل بلدته على فرض أنهم قد اقترفوا حقاً جرائمهم التي اتهموا بها وتصدى هو للفصل فيها ، أليس لهم من ملابسات حياتهم ودوافع عيشهم وحدود تفكيرهم ما يزج بهم في مزالق الجريمة دون أن يستطيعوا لها رداً ؟ أينسى كيف حكم بالجلد على سارق لأنه تسلل إلى أحد البيوت فاستولى على جانب من القوت ، وتبين بعد ذلك أن هذا السارق لم يندم على فعلته إلا ليطعم بنيه الجياع ؟ ولماذا يذهب في التفكير بعيداً ، وها هو ذا قد قتل متوهماً أنه يؤدي واجباً لا قبل له بالتخلي عنه ، فهو في حساب نفسه بريء شريف الغرض ، ولكنه في حساب العدالة مجرم يستأهل أقصى عقاب . . . إن أي رجل لو كان في مكانه ، وحاطت به هذه الملابسات ، وكان صاحب كرامة وحمية ، لما تردد في أن يفعل ما فعل ويقتل من قتل : المأمور الذي قبض عليه ، ووكيل النيابة الذي حقق معه وأدانه ، والقاضي الذي أصدر حكمه فيه ، هؤلاء جميعاً لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة لما ترددوا في أن يرتكبوا جريمته !

ليس لأحد أن يقاضيه ، ليس لأحد أن ينفذ فيه حكماً ، ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ، الله وحده هو الذي

يقدر على الإنسان ما تثبت يداه من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نجادل فيما اقتضت حكمته أن يكون - هي إرادة علوية تتصرّف فينا منذ الأزل، فيدع البشر حكم السماء للسماء !

واعتمد الشيخ عبد التجني رأسه بيديه ، وما لبث أن راح في سبات لا يدري أطال به أم قصر ، ثم رفع رأسه ودار بنظره مستطلعاً حوله وقد قامت بنفسه رغبة في أن يتبين : في أي وقت هو ؟ أفي مهبط الأصيل أم في مطلع الفجر ؟ ليس من شيء حوله إلا الصمت والظلام . . . وأحس بالوقت يمر به الهوينى ثقيل الخطا ، وشعر بأن تفكيره قد تعطلت حركته وجمد ... لقد أضحى لا يفكر في شيء على الإطلاق !

وانتابه شعور مفاجىء غريب ، شعور غامض لم يعرف كنهه يتوثب من أعماق قلبه ملتمساً له منفذاً ... وتكاثف هذا الشعور ، وازدحمت طبقاته يدفع بعضها بعضاً ، تريد الانطلاق ... وألقي في روعه أن الوقت الذي هو فيه إنما هو طلائع الصباح . وتأكد له هذا الحدس ، أنفحة من هواء رطب لامست وجهه هي التي ألقت في روعه هذا الشعور ، أم بصيرته هي التي أوحت بذلك إليه ؟

الشمس الآن في طفولتها تتهادى على بساط الأفق باسمة تنثر الضياء وتشيع النشاط والحركة في رحاب الكون ، وهل نسي قط تلك الساعة الرائعة في قريته ؟ لقد طالما استقبلته بواكير النهار في منصرفه من المسجد وهو ينقل حبات المسبحة بين أصابعه مردداً الأدعية والابتهالات التي ألف أن يختم بها صلاة الصبح ، ولقد طالما حياه نسيم السحر وهو على المصطبة الفسيحة أمام داره بسطت عليها مفارش صوفية زاهية الألوان ، وقد جلس يقرأ بعض كتب الشريعة والسِّيَر متذوقاً مستمتعاً بما تُهْدِي إليه من غذاء روحي ورضاً نفسي ! ...

على هذه المصطبة نعم حيناً من الدهر بصحبة صديقه المتهم بتدنيس شرف أخته ، فقضى مع هذا الصديق أوقاتاً كلها مؤانسة وصفاء ، وبادله أحاديث كلها مؤازرة وتعاون ، وكانت نهاية هذه الصداقة أن سدد إليه طلقاً ناريًّا أرداه قتيلا . وأمام هذه المصطبة تمتد الساحة الرحبة التي كانت تزخر بطلاب الحاجات ومن يفزعون إليه يطلبون قضاءه في المنازعات . كان يقضي

في هذا المكان شطر نهاره ، يتناول فيه الطعام الذي تعده أخته له بارع الطهي مختلف الألوان شهيًا .

أخته !.. وتراءت له السكين المخضبة، وهو يمسحها في قبائه، ورأس القتيلة يتسايل منه الدم غزيراً ... أبريئة هي حقًا ؟ لقد اعترف « السعداوي » بأنه كان أفاكاً مخادعاً فيما رماها به من تهمة العار . . . وعلى فرض أنها ليست بريئة ، أفكان له أن يحاكمها وأن يحكم عليها ؟ . . . إن للكون خفايا وأسراراً لا يسوغ للبشر أن يحاولوا كشف الغطاء عنها . . . الله هو العالم بالنيات والسرائر ، فله وحده الحكم ، وإليه يُرجع الأمر كله !

وخيل إليه أنه يسمع شيئاً : أحركة هي أم صوت ؟ أرهف أذنيه ؛ وأمعن من بصره . إن الوقت صباح حتماً . . . وفاجأته رعشة . لقد حدث أنه سمع قبل ذلك أصواتاً وحركات في مختلف الأوقات ، ولكن جسمه لم يكن يختلج لها أية اختلاجة ، ففيم هذه الرعشة الطارئة ؟ إنه يصغي في اهتمام ... لا ريب أن هناك حركة وهمهمة : أمن الدهليز صادرة أم من تلك الكوة الضيقة التي عجزت عن أن تأذن للضوء أن يرسل بصيصه ؟ ... إنها أصوات . . . إنه وقع أقدام .. وأحس بقشعريرة تسري في جسده ، ووجد نفسه كأنما تحول كله آذاناً صاغية . أحراس إليه بالطعام قادمون ؟ أم . . . أم . . .

وتسمرت عيناه نحو الباب يرقبه .

وتعاقبت لحظات ، ثم فتح الباب إلى آخره ، وظهر مأمور السجن والطبيب وشرذمة من رجال الشرطة ، وتقدموا إليه على مهل . . . وخُيّل إليه أن حديثاً يوجّه إليه ، وفطن إلى أن صدره يعلو ويهبط متلاحق الحركة ، ووضع أمامه أحد الحراس فطوره ، إنه أجود فطور وقعت عليه عيناه منذ حل في السجن . . . ووجد يده تمتد في تباطؤ وتصيب من الطعام لقيمة ، وأحس بها تضطرب في يده حتى كادت تسقط ، ولكنه استطاع أن يضبط أنامله ، وأن يلقي باللقيمة بين شدقيه . . . لقيمة واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بجرعة ماء ، ثم قال بصوت خافض متقطع النبرات : الحمد لله !

ومسح فمه بظهر يده ، وردد في صوت أجهر من ذي قبل :

الحمد لله على نعمتك يارب ...

وإذا به ينهض من تلقاء نفسه ، وألفى الجمع يتأهبون للخروج ، وقد عقدت ثلة الحراس حوله نطاقاً ، وساروا جميعاً ...

كان ممتقع الوجه ، بارد الأطراف ، خفاق القلب ، ولكنه على الرغم من ذلك كله يكسوه ظل من السكينة والهدوء . وشاعت على محياه بسمة غامضة : أبسمة ألم هي أم بسمة تهكم ؟ وكان لا ينفك يردد :

الحمد لله على نعمتك يا رب !

وسار في الدهليز تغمره لجة من تفكير متقلب عميق . إنه مقبل على رحلة طويلة مبهمة ، بيد أنه على يقين من رحمة الله ، إن الله واسع المغفرة تواب . من هو الشيخ عبد المتجلي بالنسبة لعظمة الخالق ؟ إنه لأهون من جناح بعوضة . الناس تجازي الناس سوءاً بسوء وإحساناً بإحسان ، أما الله جل شأنه فإنه لن يقابل الذنب إلا بالعفو والرضوان .

وسيق إلى حجرة لا تختلف عن سائر حجر السجن إلا بهذه الدمة الصغيرة التي تدلت عليها من السقف أنشوطة مفتولة ... أتكون المشنقة ؟ ليست كما يتوهم الناس مرهوبة مفزعة ، ليس فيها ما يبعث على العجب ، إنها لأشبه بأرجوحة الصبيان في القرية

وتجمع إحساسه حول نفسه ، وتعمق في دخيلتها ، فلم يعد يشعر بما حوله ولا بمن معه ، لقد أصبح نائياً عن المحيط الذي هو فيه بجسمانه . وكانت شفتاه تختلجان بالدعوات سريعة مختلطة ...

وخيل إلى الشيخ عبد المتجلي أنه يسمع من بعيد صوتاً يتلو أسباب الحكم عليه . وأبصر خلف الضباب الذي كان يغشي عينيه شبحاً يدنو منه ويأخذ بكتفيه ، فألفى نفسه يدفعه عنه . ووجد قدميه تخطوان نحو الدمة ...

وفي هذه اللحظة طرق سمعه صوت قائل : ألا تشتهي شيئاً ؟ بماذا توصي ؟

وأحس يداً تدير الأنشوطة حول عنقه ، فأجاب بصوت بين :

إني رتيبة ... كما أرباه . الله وحده هو الذي يملك الحكم على عباده !